التحديات التي تواجهها اللغة العربية (الازدواجية اللغوية نموذجا)

أ. د. عامر باهر اسمير حسن

الملخص

تتناول هذه الورقة دراسة التحدي الكبير الذي واجهته اللغة العربية "عبر تاريخها الطويل،وما زالت تواجهه حتى يومنا هذا،المتمثل بالازدواجية اللغوية التي سببها وجود مستويين للغة في الواقع اللغوي الأول تمثله اللغة المكتوبة (الفصحى و الفصيحة)،والمستوى الثاني تمثله اللهجات المحكية. وقد بات من المعلوم أن إرهاصات اللهجات العامية في تاريخ العربية لم تظهر إلا حين شاء الله أن يخرج العرب من شبه الجزيرة العربية فاتحين، ليعلموا الناس في البلدان المفتوحة تعاليم الدين الجديد، بعد أن أخذوا يدخلون في دين الله أفواجا، وفيهم التركي والرومي والقبطي والفارسي والسرياني والنبطي والحبشي، فتعرَّبَ أغلبهم اعتزازا بلغة القرآن الشريف،ولم تكن الفصحى طبعًا لديهم،كما كانت عند العرب الخلص، فَسَرت عدواهم إلى ألسنة طائفة من المتحضرين من العرب،وبدت طلائع اللحن في كلامهم. وهذا يعني أن العامية بدأت لحنا في اللغة الفصحى، ثم اتسعت بكثرة ما طرأ عليها من الدخيل ومستحدث الأساليب، حتى صارت لهجات عامية قائمة بنفسها، فتباعدت الشقة بينها وبين الفصحى، وشهد الواقع اللغوي أكثر من مستوى لغوي كما أسلفنا،وكان هذا التحدي الأول للعربية، وبدهي أن يكون هناك رد فعل إزاء خطر هذا التحدي، إذ تؤكد الروايات أن العرب الأقحاح كانوا يستهجنون اللحن، ويعدونه من أشنع الهنات، وكان هذا قمينا بظهور حركة التصحيح اللغوي المتمثلة بعشرات الكتب التي عرفت بكتب "لحن العامة" التي كان الرائد فيها الأمام الكسائي(١٨٩هـ)"رحمه الله"، وكان هدفها كلها مواجهة ما يعرف في أيامنا بالازدواجية اللغوية. وكان من الطبيعي أن يرث واقع اللغة العربية في العصر الحديث لهجات عاميات كثيرة مثلت تحديا أكبر من سابقه، حتى أنه كاد أن يمزق وحدة الأمة من خلال تفتيت لغتها، ومما زاد من خطورة هذا التحدي ظهور دعوات إلى استعمال اللهجات العامية، ونبذ الفصيحة والفصحى، واتخذت هذه الدعوات أشكالا متعددة، وكان يقف وراءها نفر من أعداء العربية الذين هم أعداء العروبة والإسلام؛ لكن الغيارى على لغة القرآن لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء خطر هذا الداء ولم ينتظروا حتى يستشري في جسد العربية؛ لذا بادروا للتصدي له تصديا يوازي خطورته. وكانت حصيلة هذا التصدي انتصار أنصار الفصيحة، وانكفاء دعاة العامية وانحسار أفكارهم وطروحاتهم؛ لكن على الرغم من كل هذا بقيت الازدواجية اللغوية واقعا مفروضا لا ينكره أحد. وستكون مهمة هذه الورقة تفصيل الحديث عن كل هذه المسائل، كما سيكون لها موقف من هذا التحدي الذي أحاق بلغتنا المُشرَّفة، وستقدم في هذا الصدد مجموعة من الحلول والمقترحات والتوصيات من أجل مواجهة هذا التحدي،بما يؤدي إلى تحجيم نطاق استعمال اللهجات العامية. وسيكون هدف الورقة الرئيس هو التركيز على التخفيف من وطأة الازدواجية في واقعنا اللغوي بتقليص الفجوة بين اللهجات المحكية من جهة واللغة المكتوبة من جهة أخرى، لجعل العلاقة بينهما أقرب ما تكون إلى علاقة الفصحى بلهجات العرب المحكية في القرون الثلاثة الأول من هجرة رسولنا المجتبى"صلى الله عليه وسلم"،عندها سيكون بمقدورنا أن نحقق وحدة اللغة،التي ستفضي إلى وحدة الأمة حتما، والله من وراء القصد.

نبذة من تاريخ الازدواجية في اللغة العربية :

كانت اللغة "العربية الفصحى" طبعًا عند العرب قبل الإسلام، يبرعون في الكلام بها على السليقة وكانت هي السائدة في شعر شعرائهم وخطب خطبائهم،وأقوال فصحائهم وأمثالهم وحكمهم،ولم تتغير سليقة الفصحى لديهم بمجيء الإسلام، بل استمرت هذه السليقة على ما هي

عليه في عصر الخلافة الراشدة، والعصر الأموي وما تلاهما من العصور التي أطلق عليها عصور الفصاحة(١).

وإلى جانب مستوى "اللغة الفصحى" التي سماها المعجميون وعلماء اللغة والنحو القدامى "كلام العرب" و"لغة العرب" وسماها المحدثون "اللغة المشتركة" و"المُوَحَّدَة "و"اللغة النموذجية" هناك مستوى لغوي ثانٍ يتمثل بلغات العرب إذ كانت لكل قبيلة عربية لغة(٢)خاصة بها، لها سمات تميزها من غيرها من اللغات من جهة وتختلف عن اللغة الفصحى من جهة أخرى، وفي الوقت نفسه تشترك معها بسمات، لكنها لم تكن لتزاحم سيادتها في ميداني الشعر والخطابة وغيرهما من الميادين اللغوية على الرغم من أن البون لم يكن شاسعًا بين المستويين؛ وكانت هذه اللغات تستعمل وسيلة للتفاهم بين أبناء كل قبيلة والتشاور في شؤون حياتهم اليومية ؛ لكنها كانت تتباين في فصاحتها بحسب موقعها من شبه جزيرة العرب، ومضارعتها للغة القرآن "العربية الفصحى"، وعلى هذا الأساس عدت لغة قريش أفصح هذه اللغات (٣)،وهذا سبب قول القائلين إن القرآن قد نزل بها،وفي هذه الدعوى نظر،ولكننا لسنا بحاجة إلى مناقشتها في هذا البحث ؛لأن ليس هذا مجالها ولأن الدكتور تمام حسان قد كفانا مؤونة ذلك بردِّه هذه الدعوى وكلامه عليها كلاما مفصلا. (٤)

لكن الواقع اللغوي لم يبق على ما هو عليه بوجود مستويين لغويين(الفصحى واللهجات) بل شهد تغيرا كبيرا حين شاء الله أن يخرج العرب من شبه جزيرة العرب فاتحين، ليعلموا أبناء البلدان المفتوحة تعاليم الدين الجديد، بعد أن أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وفيهم الفارسي والرومي والقبطي والنبطي والسرياني والحبشي، فتعرَّبَ معظمهم شغفًا بلغة القرآن الشريف،ولم تكن الفصحى طبعًا لديهم،كما كانت عند العرب الخلص، فَسَرت عدواهم إلى ألسنة قسم من المتحضرين من العرب،وبدت طلائع اللحن في كلامهم، على أنه لم يكد يُطوى بساط الدولة الأموية حتى دب دبيب اللحن إلى ألسنة سائر المتحضرين من العرب(٥)وكثر استعمالهم الألفاظَ الدخيلةَ حتى أصبحت اللغة الملحونة بمعزل عن الفصيحة.(٦) ثم تفشى اللحن حتى صار ظاهرة في العصور اللاحقة، لكن على الرغم من كل ما حدث فإن العربي المحض كان يستهجن اللحن، ويعده من أشنع الهنات.(٧)

وفي ضوء ما تقدم يمكننا القول إن اللهجات العاميات بمفهومها الشائع في أيامنا لم تأخذ طريقها إلى ألسنة الناس إلا بعد القرن الرابع للهجرة، بعد أن عمَّ الفسادُ وفشا الاضطرابُ في كلام معظم أعراب الجزيرة، وهكذا نرى أن العاميات بدأت لحنًا في اللغة الفصحى، ثم اتسعت بكثرة ما طرأ عليها من الدخيل ومستحدث الأساليب حتى صارت لهجات قائمة بنفسها تمثل مستوى لغويًّا ثالثا، فتباعدت الشقة بينها وبين الفصحى (٨)، ومن ثم آل الواقع اللغوي إلى الازدواجية فصارت أمرًا واقعًا؛ تسوده ثلاثة مستويات لغوية، ولم تعد الفصحى طبعًا عند أبناء الأمم التي اعتنقت الإسلام،بَلْهَ عند كثير من العرب، وصارت تكتسب اكتسابًا،لكن بقي مقامها محصورًا من حيث هي لغة الأدب الوحيدة في العالم الإسلامي ثابتًا غير منازع، نظرًا لبقاء وحدة الثقافة في الدولة كاملة غير منقوصة؛ بل لقد زاد انتشار هذه العربية عن ذي قبل،(٩) إلى أن انصب سيل التتار الجارف الذي أدى إلى سقوط بغداد عام (٦٥٦هـ /١٢٥٨م)، وكان هذا أخطر تحد تواجهه العربية على مدى تاريخها الطويل، إذ لم تقو على مقاومته،وفجعت بزهرة علمائها، وأبطال حماتها، فانطمست أعلامها، وغاب عنها أنصارها.،لكن ما برحت أُمُمُ التتار أن اعتنقت الدين الحنيف، فاستعادت العربية شيئًا زهيدًا من سلطتها، بوصفها لغة القرآن الشريف.(١٠)

إذًا هذا ما آل إليه واقع اللغة العربية، لكننا نتساءل: أَ تُرِكتِ الأمورُ على علاتها، أم ظهر فعل مضاد لما يجري في هذا الواقع اللغوي ؟ الحق إن الغيارى على لغة الضاد لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء هذا الخطر الداهم،ولم ينتظروا هذا الداء ليهدم بنيان العربية، بل بادروا للتصدي له تصدِّيًا يوازي خطورته، فكان ذلك بداية لبزوغ حركة لغوية نقدية عرفت بحركة(تنقية اللغة) التي كان هدفها تخليص العربية مما علق بها من شوائب العامي والمعرب والدخيل والمولد، ومن ثم الحد من ظاهرة الازدواجية في اللغة. ويتضح لمن يتتبع تاريخ هذه الحركة منذ ظهور بواكيرها في نهاية القرن الثاني للهجرة، وبدء اتساعها حتى نضجها وبلوغها أوج نشاطها في نهاية القرن الرابع، أنها كونت بحصيلتها التصحيحية تراثًا لغويًّا ونقديًّا ضخمًا تمثل بثلاثة مسارات:

- الأول: وتمثله كتب النحو، ولا سيما التعليمية منها، فقد أصبحت هذه

الكتب مرجعًا مهمًّا يعتمد عليه في اكتساب قواعد اللغة الفصحى، وتوقي الخطأ في الإعراب.

- الثاني: وتمثله المعجمات العربية التي كان لها فعل مشهود في حركة تنقية اللغة العربية، لكثرة ما حوته من قضايا التصحيح اللغوي، من نقد للخاصة والعامة، وتقويم للغات العرب.
- الثالث: ويمثله هذا التراث الضخم مما ألف من كتب في لحن العامة والخاصة حتى نهاية القرن الرابع (١١)،وإذا كانت مهمة المسار الأول تصحيح الخطأ في الإعراب، وهو أول مظهر من مظاهر اللحن في تاريخ العربية، فإنَّ مهمة المسارين الثاني والثالث الرئيسة كانت تصحيح ما يلحق ألفاظ هذه اللغة من التغيير في الدلالات والأصوات والصيغ.

وعلى الرغم من أَن نشأة النحو العربي وإسهامه في حركة تنقية اللغة العربية سابقة لظهور كتب لحن العامة والمعجمات، فإن المسارات الثلاثة كانت موجودة جنبًا إلى جنب يجمعها هدف مشترك هو تنقية اللغة. (١٢)

واقع اللغة العربية في العصر الحديث وتحدي الازدواجية اللغوية

على الرغم من فاعلية حركة تنقية اللغة وتصاعد دورها في التصدي للحن والحد من آثار انتشاره فإن واقعنا اللغوي ورث عاميات محكيات كثيرةً تتباين من قطر إلى آخر، وشهد حالةً من التباعد بين اللغة المكتوبة وهذه العاميات جعلته يعاني من مشكلة لغوية، أطلق عليها الباحثون المحدثون مصطلح "الازدواجية اللغوية" التي تعد من أكبر مشكلات العربية في زماننا؛ لأنها صارت أعمق بكثير من ازدواجية اللغة في عصورها القديمة ؛وذلك نتيجة لحالة الاستلاب الثقافي والحضاري الذي مرت به أمتنا العربية،في أثناء خضوعها للسيطرة الأجنبية،ونتيجة لحالة الاستلاب هذه تفشت الأمية على نطاق واسع بين أبناء الأمة مما ترك أثره في واقع اللغة؛ لذا ابتعدت الشقة بين المستويين(اللغة المكتوبة و اللهجات المحكيات)من جهة، وصار البون شاسعا بين العاميات المتعددة نفسها من جهة أخرى، إلى درجة أن الإنسان العربي في قسم من أقطار أمتنا صار يحتاج إلى من يترجم له ما يقوله أخوه في قطر عربي آخر، وهذا يعني أنه ((إذا ما بقيت الأمور على ما هي عليه سيأتي اليوم الذي لا يشعر المتحدثون بهذه العاميات أنهم ينتمون إلى أمة واحدة، ويصبح تعلم الفصيحة أصعب كلما ابتعدت الشقة بين المستويين)) (١٣).

ولكن حركة إحياء التراث العربي التي بدأ أنصارها نشاطهم منذ فجر القرن التاسع عشر تركت بصماتِها الواضحةَ على الواقع اللغوي العربي، إذ طبعت على إثر بزوغها المئات من كتب اللغة والنحو والمعجمات وكتب التصحيح اللغوي والنماذج الأدبية الممتازة،وغيرها. وبدأت الفصيحة تستعيد مكانتها بوصفها اللغة الرسمية ولغة الأدب والعلوم والفنون والسياسة، وبخاصة بعد أن ولَّت إلى غير رجعة عصور التفريس والتتريك والفرنسة،وغيرها من الحركات الهدامة التي أرادت أن تطمس هوية الإنسان العربي وتستلب فكره وثقافته،و تراثه وتاريخه.

إن واقع الصراع اللغوي هذا واستفحال ظاهرة الازدواجية ساعد على أن تستأنف حركة تنقية اللغة دورها من جديد بعد أن توقف نشاطها ردحا من الزمن، متمثلة بكتب التصحيح اللغوي (١٤)،فضلا عن المعجمات وكتب النحو التعليمية، وبهذا عادت هذه الحركة لتكون امتدادا لحركة "تنقية اللغة العربية" التي تكلمنا عليها آنفا وذلك من خلال تصحيح أخطاء العامة والمثقفين وتنبيههم على ضرورة الالتزام بالاستعمالات العربية الصحيحة والفصيحة. وما زالت هذه الحركة مستمرة حتى يومنا هذا، مما دفع كثيرًا من الباحثين إلى دراسة هذا النمط من التأليف اللغوي فألفوا في ذلك كتبا لدراسة تاريخ هذه الظاهرة في العربية، عرفت بـ "كتب التصحيح اللغوي" (١٥).وإذا كان هدف مؤلفي كتب النحو والمعجمات والتصحيح اللغوي قدماء ومحدثين هو عصمة الألسن من اللحن والحفاظ على القرآن الكريم من هذه الآفة فإنها بمحصلتها ستؤدي إلى تضييق الفجوة بين المستويين وهذا يعني أنها ستفضي إلى الحد من ظاهرة الازدواجية كونها من الوسائل المهمة لمواجهة هذه الظاهرة.

وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نرسم خارطةً للواقع اللغوي الجديد الذي ظهر بعد نشوء حركتي إحياء التراث والتصحيح اللغوي،تتمثل بالمستويين الرئيسين الآتيين:

أولا ـ مستوى اللغة المكتوبة :

ويمكن أن نقسم هذا المستوى على المستويين الآتيين:

١. مستوى الفصيحة: ويتمثل هذا المستوى في واقعنا اللغوي بلغة العلوم والإعلام والتدريس وما يقابل اللغة الفصيحة في واقعنا اللغوي هو اللغة غير الفصيحة، ويندرج تحت مصطلح "اللغة غير الفصيحة" اللغة الضعيفة و الرديئة، واللهجات العامية (١٦).

٢.مستوى الفصحى: وتمثله لغة كتب التراث اللغوي والأدبي التي وصلت إلينا بعد عصر النهضة، والفصحى التي نعنيها هاهنا هي: غير الفصيحة، لكن الكتاب والباحثين غالبا ما يخلطون بين المصطلحين،وقد عرضت إشكالية الخلط بينهما في بحث سابق لي.(١٧) ولهذا ليس صحيحا أن نجعل مستوى اللهجات العامية مقابلا لمستوى الفصحى ونأتي بهما في قَرَنٍ واحد.

ومن الجدير بالإشارة أن كلا المستويين . أعني الفصحى والفصيحة . مكتسب وينحصر استعماله في اللغة المكتوبة غالبًا، ولا يتحدث به أصحابه على السليقة؛ لأن الإعراب لم يعد طبعا لدى العرب في عصرنا، كما أن كلا المستويين يحرص على ثوابت اللغة المتمثلة بقواعد النحو والصرف، ويسعى إلى تجنب اللحن.

ثانيا: مستوى اللهجات المحكيات:

وتُمثل هذا المستوى مئاتُ اللهجات العامية المنتشرة في أقطار الأمة العربية التي يتحدث بها عامة الناس بالسليقة؛ ولكل لهجة مستوى صوابي خاص بها، ومختلف في الوقت نفسه عن مستويي الفصيحة والفصحى. وتعد هذه العاميات تحدِّيًا كبيرًا واجهته اللغة العربية هو أكبر بكثير من سابقه الذي واجهته في العصور العباسية وما تلاها من عصور الانحطاط الحضاري الذي آل إليه حال الأمة العربية بعد سقوط بغداد،وكان من الخطورة بمكان حتى أنه كاد أن يمزق وحدة الأمة من خلال تفتيت لغتها بتعميق الازدواجية،ومما زاد من خطورة هذا التحدي ظهور دعوات إلى استعمال العاميات، ونبذ الفصيحة، وليس مصادفة أن يكون مجموعة من المستشرقين الغربيين من أوائل الدعاة إلى العامية وأكثرهم تحمسا لها ؛ وممن تخندق بخندقهم من العرب المتأثرين بأفكارهم وثقافتهم(١٨)، لقد استغل هؤلاء المتحمسون للعامية وجود الازدواجية اللغوية في محيطنا اللغوي،على الرغم من أن الازدواجية ظاهرة طبيعية لم تنج منها أية لغة من لغات الدنيا، وأطلقوا دعواتهم الخبيثة الهادفة إلى نبذ الفصيحة والفصحى واستعمال العاميات بدلا منها، في الشؤون التي تستعمل فيها،ودعوا إلى ضرورة أن تكون اللهجات الدارجة لغة رسمية في مجالات العلوم والفكر والفنون والآداب.حدث هذا في أكثر من قطر من أقطار أمتنا العربية. (١٩)

وقد اتخذت الدعوات إلى استعمال العاميات أشكالا متعددة (٢٠)، كان القاسم المشترك بينها أكبر من مجرد إحلال لغة محل لغة غيرها ؛لأنها كلها تهدف إلى إضعاف لغة الضاد لغة القرآن الكريم بل القضاء عليها، ألا خاب ظن أصحابها. ومن أجل أن يسبغ أصحاب هذه الدعوات حسن النية على دعواتهم كانت هذه الدعوات تطرح مشفوعةً بذرائعَ يستند إليها أصحابها ويتخذونها حججًا في أثناء الدفاع عن مواقفهم (٢١).

وقد أثارت هذه الدعوات وذرائعها وغيرها مما لم نأت على ذكره، جدلا قويًّا بين أنصار الفصيحة وأنصار العامية، أو لنقل بين عشاق العربية والحاقدين عليها،ودارت على أعمدة الصحف والمجلات سجالاتٍ ومعاركَ كلامية غالبا ما كانت حامية الوطيس وكان كلُّ فريقٍ يدلو بدلوه ويحاول أن يفنّدَ حجج الطرف الآخر،وكانت محصلة هذا الصراع انتصار أنصار الفصيحة (٢٢) وانكفاء دعاة العامية وانحسار أفكارهم وأطروحاتهم؛ ولا نغالي إذا ما قلنا إن هذه الدعوات ولدت ميتة ؛لأن أصحابها قدموها باللغة العربية الفصيحة ولم يقدموها بلغتهم التي دعوا إليها (٢٣)، وعلى الرغم من أن هذا الصراع قد انحسر إن لم نقل قد انتهى فإن واقعنا اللغوي بقي محكومًا بالازدواجية اللغوية، وهنا نتساءل ما الحلُّ إذًا ؟هذا ما سيجيبُ عنه هذا البحث المتواضع في صفحاته الآتية.

لا نغالي إذا ما قلنا إن مشكلة اللهجات المحكية وما استتبعها من ظهور مشكلة الازدواجية اللغوية قد لقيت من العناية من الباحثين والعلماء ما لم تلقه أية مشكلة غيرها في عصرنا (٢٤)، لذا لم نستغرب أن تؤلف حول هذه المشكلة كتب، أو تكتب عنها فصول في كتب، وتعقد من أجلها ندوات (٢٥)،وتقام مؤتمرات، وتحرر عنها مقالات في الصحف،وتكتب عنها أبحاث ومقالات في المجلات والدوريات، وكان ذلك على مدى قرنين من الزمان، وكانت هذه الجهود تسعى إلى دراسة هذه المشكلة وتسليط الضوء عليها وبيان مخاطرها، والبحث عن سبل الحد منها واقتراح الحلول الناجعة للتخلص منها. (٢٦)

الحق إن ما قدم من مقترحات ومعالجات لمواجهة هذا التحدي أكثر من أن يتسع له بحث كبحثنا المتواضع هذا، لكن المعضلة تكمن في أن طائفة من هذه المقترحات لم تجد طريقها إلى التنفيذ،لعدم جديتها فأهملت قبل أن يجف الحبر الذي كتبت به،أو لكونها مثاليةً يصعب تطبيقها، فغدا وجودُها وعدمُه سواء.

ومع ذلك فثمة طائفة من المقترحات آتت أكلها؛ لكونها أقربَ إلى الواقعية منها إلى المثالية ؛ ولأنها مقترحاتٌ جادَّةٌ،ومما ساعد على ذلك التطور الثقافي والحضاري الذي تحقق في أقطار أمتنا، مما أدى إلى انحسار الأمية نسبيًّا،وانتشار التعليم على نطاق واسع وتطور وسائل الإعلام في معظم أقطارها، وانعكس ذلك إيجابيًّا على واقع اللغة العربية الفصيحة،مما يجعلنا نطمئن إلى أن الأمور تسير في مصلحة هذه اللغة،إذ إن أية مقارنة بين حال الفصيحة اليوم وما كانت عليه قبل خمسين سنة تكشف صواب ما ذهبنا إليه. كما أن الفجوة بينها وبين العاميات بدأت تضيق سنة بعد أخرى؛ وسيفضي هذا إلى تخفيف شدة الازدواجية حتما.

وفي ضوء ما تقدم ارتأى الباحث أن يكون الهدف الرئيس لهذا البحث هو استثمار ما تحقق للفصيحة من غلبة،بالدعوة إلى تفصيح العاميات للتخفيف من وطأة الازدواجية في واقعنا اللغوي وذلك بطرح كل ما من شأنه أن يقلص الفجوة بين العاميات المحكيات والفصيحة المرتجاة،من غير أن يتبنى فكرة القضاء على العاميات،وسيادة اللغة العربية الفصيحة في كل المجالات ؛ لأن هذا في نظره أمر محال على المدى المنظور،وعليه فإن أقصى ما يطمح إليه هو أن تغدو العلاقة بين اللهجات المحكيات و اللغة المكتوبة أقرب ما تكون إلى علاقة الفصحى بلغات العرب في القرون الثلاثة الأول من هجرة رسولنا المجتبى "صلى الله عليه وسلم "، ونرى أنه لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال تقديم مقترحات واقعية يمكن تنفيذها،كما نرى أن تقديمنا إياها غير مجدٍ إن لم يأت مشفوعًا بآلية تنفيذها،وإلا ما فائدة أن نقدم مقترحات وتبقى حبرًا على ورق؛ لذلك يقترح هذا البحث ما يأتي

أولا: تأصيل ما في اللهجات المحكية من ألفاظ فصاح:

يرى هذا البحث ضرورة التأكيد على ما في اللهجات المحكية من ألفاظ فصاح، وذلك من خلال تأصيل مفرداتها،وإبراز ما فيها من هذا النمط من الألفاظ (٢٧)،بعد تنقيتها مما شابها من تغيير في الأصوات أو البنى أو الدلالات والتراكيب، وتوثيق ذلك من المعجمات وكتب اللغة، وتبصير الناس بها، وحثهم على الإكثار من استعمال أمثالها. ومن الجدير بالذكر أن كتابتنا أبحاثا في المعجم العربي وكتب لحن العامة القديمة والحديثة(٢٨)، واستقراءنا هذه الكتب والمعجمات استقراء معمقا جعلتنا متفائلين على مستقبل اللغة العربية الفصيحة ؛ وذلك لوجداننا آلافًا من ألفاظ اللهجات المحكية القديمة والحديثة تؤول إلى أصول عربية صحيحة وفصيحة لا غبار عليها سوى أن العامة قد ابْتَذَلَتها مع أنها ليس فيها خروج عن سنن الفصحى، أو أحدثت فيها تغييرات صوتية أو صرفية أو دلالية ؛ مما جعلها تبدو بعيدة عن العربية. وقد أثبت عدد من الباحثين في دراساتهم التأصيلية أن في عامياتنا آلافًا من هذه الألفاظ ذوات الأصول الفصيحة، لذا يرى الباحث ضرورة تسليط الأضواء عليها وحث الناس على المضي قدما في استعمالها؛ لأنها لا تقل أهمية عن فصاح العربية الأخر،وقد ذهب الأستاذ هشام النحاس أبعد من ذلك حين رأى أنها:((يمكن أن تكون أهم ما في فصيح لغتنا لأنها أثبتت وتثبت أنها الأقوى على الحياة والأقدر على البقاء على الألسنة والإفهام...)) (٢٩) وفي ضوء ما تقدم نقول: إن اكتشاف فصاح العاميات وردها إلى أصولها العربية الفصيحة جديرٌ بالعناية والدراسة،،وقد تنبه إليه أكثر من عالم من علمائنا المحدثين والقدماء(٣٠). وأنا من هذا المقام العلمي الكبير أدعو إخوتي وأخواتي من المشاركين في هذا المؤتمر وممن لم يشاركوا من الباحثين في أقطار أمتنا أن يكتبوا بحوثًا أو يؤلفوا كتبًا في أقطارهم ومدنهم ليضعوا يدهم من خلالها على ما في لهجاتها من ألفاظ عربية فصيحة على غرار ما فعله الشيخ أحمد رضا (٣١) والدكتور محمود الجومرد(٣٢) في لهجتي دمشق والموصل،وما فعله الباحث هشام النحاس(٣٣)،وكثيرون غيرهم(٣٤)، ولا شك في أن تغليب هذا المنحى من التفكير والدراسات سيساعد حتما على تفصيح لهجاتنا المحكيات و رفع مستواها إلى مستوى يجعلها قريبا من مستوى الفصيحة مما يعني تقليص الفجوة بينهما،وبذلك نكون قد خطونا خطواتٍ في طريق الحد من الازدواجية.

ثانيا. تأصيل ما في لهجاتنا من أُصول مولدة من الكلام العربي:

تشتمل لهجاتنا على ألفاظ مولَّدة من المادة العربية بعد عصور الفصاحة قال عنها كثير من علماء اللغة إنها ليست بعربية محضة،أو ليست عربية صحيحة،أو ليست من أصل كلام العرب. ولم يعتدوا بها، لأنها غير فصيحة على وفق مقاييسهم الصارمة. في حين أن هناك الكثيرين من علمائنا المتأخرين اعترفوا بالمولد واستشهدوا به، كما أخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة بهذا الاتجاه فضمن معجمه الوسيط وما أخرج من معجمه الكبير كثيرا من المولدات (٣٥)،لذا علينا أن نؤصل ما في عامياتنا من ألفاظ مولدة ونميزها من غيرها، ومن ثم نبقيها في عاميتنا ما دامت أصولها عربية.

ثالثا. تأصيل ما في لهجاتنا من ألفاظ ذوات أصول لهجية:

أثبتت الدراسات التأصيلية الحديثة أن كثيرا من الألفاظ العامية تؤول إلى لهجات عربية قديمة، وأن نسبة أخرى تمثل سمات لهجية لهذه القبيلة أو تلك. مما لم يعتد بها المعياريون من العلماء وقالوا إنَّها مرغوبٌ عنها؛مع أنها عربية صحيحة ؛لذا أقترح أن نكتب أبحاثا تأصيلية في لهجاتنا المحكية تميز العربي المرغوب فيه من غير العربي المرغوب عنه من هذه الألفاظ اللهجية، فنأخذ بالأول ونتجنب الثاني.

رابعا. ترسيس(٣٦) ما في لهجاتنا من ألفاظ دخيلة ومعربة:

لا تخلو اللهجات العامية في زماننا من ألفاظ معربة أو دخيلة ليست من كلام العرب الأصيل،إنما اقترضت من لغات الأمم الأخر التي خالطها العرب في هذا القطر أو ذاك،واستعملتها العامة بلفظها الأجنبي(الدخيل)،أو بصيغتها العربية (المُعَرَّب)،وصارت جزءًا من لهجتها وورثها الأبناء عن الآباء والأجداد(٣٧)، ومن الممكن أن تميز بالطرائق التي ذكرها علماؤنا القدماء(٣٨)أو بإخضاعها لدراسات تأثيلية. (٣٩) وفي هذا الصدد أدعو زملائي الباحثين إلى كتابة دراسات تأثيلية، والاطلاع على الدراسات الترسيسية التي قام بها باحثون معاصرون ممن يتقنون اللغات الشرقية القديمة ولا سيما الجزرية منها وأثبتوا فيها أن كثيرا من الألفاظ التي قال عنها أصحاب المعجمات ومؤلفو كتب المعرب والدخيل القديمة والحديثة إنها معربة أو دخيلة هي في الأصل ألفاظ عربية قديمة اقترضتها الأقوام المجاورة للعرب من العربية فظن علماء اللغة القدماء أنها دخيلة أو معربة،(٤٠)ومحاولة الإفادة منها في أبحاثهم،كما آمل أن تولي مجامع اللغة العربية والجامعات العربية عنايةً خاصة بمثل هذا النمط من الدراسات.إن الفائدة التي نجنيها من أمثال هذه الأبحاث هي أنها تساعدنا في تمييز الألفاظ العربية الأصيلة من المعربة والدخيلة فنتمسك بالأولى منها ونكثر من استعمالها ونتجنب الثانية إذا ما كان لها معادل في العربية.

خامسا: العمل على تنقية اللغة الفصيحة من آثار اللحن:

وذلك بتشجيع دراسات التصحيح اللغوي، والعمل على إحياء تراث التصحيح في العربية،وإعادة طبع ما ندر أو نفد منه، ونشر ذلك بين قطاعات المجتمع كافة عن طريق وسائل الإعلام المختلفة؛ ونقترح بهذا الصدد أن يخضع كل ما يطبع من الكتب والرسائل والأطاريح الجامعية والمجلات والدوريات والصحف للتقويم اللغوي،كما نرى ضرورة وضع مفردات خاصة بالتصحيح اللغوي ضمن فروع اللغة العربية؛ لكي ينبه الطلبة من خلالها على الأخطاء الشائعة ليجتنبوها في كلامهم وكتابتهم ويتعلموا ما يقابلها من الصواب ابتداء من المرحلة المتوسطة ويستمر ذلك في مراحل التعليم اللاحقة كافة.

سادسا: جعل اللغة العربية الفصيحة لغة التدريس والإعلام والعلوم كافة(٤١):

إننا في الوقت الذي نرى ضرورة أن تبقى اللغة الفصحى لغة للكتاب والشعراء والأدباء، والأعمال الأدبية الكبيرة. نقترح أن تكون اللغة المستعملة في التدريس والإعلام والعلوم كافة هي اللغة العربية الفصيحة المُعَرَبة،والعمل على تيسير تعلمها وتعليمها، وإلزام الطلبة بالتحدث بها، وذلك من خلال تطبيق مبدأ الثواب والعقاب (٤٢)، وإذا ما تحقق ذلك في المجالات المشار إليها، فإن دائرة استعمال العاميات ستضيق،إذ ستبقى محصورةً في الشؤون اليومية للناس وستتطور حتما مما يؤدي إلى أن تضيق الفجوة بينها وبين الفصيحة، ومما يساعد على تنفيذ هذا المقترح هو جعل التعليم إلزاميًّا في مرحلتي التعليم الأساسي والإعدادي (٤٣)، والعمل على تيسير النحو والتركيز على النحو الوظيفي بما يكفل تحقيق هذه الغاية.

ومن الجدير بالذكر هاهنا أنني

قرأت على صفحات (الشابكة) أن هناك رياضًا للأطفال قد فتحت في كل من مصر وسورية والسعودية والكويت يتم فيها تعليم اللغة العربية (الفصحى!!) (٤٤) للأطفال بالفطرة قبل سن السادسة، منها روضة رياض الفصحى في حفر الباطن وغيرها، أقول إن إعمام مثل هذه التجربة في أقطار الأمة كافة من شأنه أن يساهم مساهمة فعالة في مواجهة تحدي الازدواجية.

التوصيات:

أولا: إقامة مؤتمر يخصص لتأصيل ما في اللهجات المحكية من ألفاظ فصيحة: من هذا المقام العلمي الكبير ومن رحاب هذا المجلس المعطاء ؟؟ آمل أن يقيم المجلس الدولي للغة العربية الموقر مؤتمرا مخصصا لتأصيل ما في اللهجات العربية المعاصرة من ألفاظ فصاح أو أي عنوان آخر يحقق هذا الهدف،يدعو فيه الباحثين إلى كتابة أبحاث تأصيلية تظهر ما في لهجات مدنهم وأقطارهم من ألفاظ تؤول إلى أصول عربية فصيحة، وضرورة أن يصنعوا معجمات لمثل هذه الألفاظ ؛ومن ثم يقوم المجلس بإصدار معجم كبير يضم الألفاظ الفصيحة في اللهجات العربية المعاصرة كافة، إن مؤتمرا كبيرا كهذا سيسهم بلا شك إسهاما كبيرا في تقليص الفجوة بين العاميات المحكيات واللغة الفصيحة مما سيفضي حتما إلى تخيف وطأة الازدواجية اللغوية.

ثانيا: إنشاء مجمع لغوي في كل قطر: ومن أجل تيسير تحقيق مقترحاتنا، يوصي الباحث أن يكون هناك مجمع لغوي في كل قطر من أقطار أمتنا، ولا ضير أن يكون هناك تكامل لغوي عربي؛ من أجل تحقيق هذه التوصية.

ثالثا: إن فعلا كبيرا كهذا من شأنه أن يحد من الازدواجية اللغوية لا يمكن النهوض به إلا إذا تضافرت الجهود كافة،وعلى شتى المستويات سواء أكانت على مستوى الحكومات أم مستوى الأفراد أم الجماعات والهيئات، بما يحقق الأمن اللغوي العربي، فنحن نرى أن الحكومات هي التي تكفل استعمال الفصيحة في التعليم والعلوم والإعلام بمختلف أشكاله وصوره، كما أن بمقدورها أن تلزم المواطنين باستعمال الفصيحة في كتابة اللافتات التي تضعها المؤسسات والمحلات التجارية أو الصناعية على واجهات محالها؛ لأنها قادرة على أن تصدر قوانين ملزمة لمؤسسات الدولة وللمواطنين في كل ما تقدم، الغاية من إصدارها إياها الحفاظ على سلامة اللغة العربية،وهي قادرة على تشكيل لجان وهيئات لضمان تنفيذ مثل هذا القوانين.

ومن الجدير بالذكر هاهنا أن لمجامع اللغة العربية ووزارات التربية والتعليم في أقطار الوطن العربي دورا فعالا في هذه المسألة، ولنا على ذلك تجربة رائدة تتمثل بما حصل في العراق عندما شُرِّعَ قانون للحفاظ على سلامة اللغة العربية(٤٥)،وقد شرع هذا القانون عام ١٩٧٨بناء على ما اقترحه المجمع العلمي العراقي في إطار خطة للنهوض باللغة العربية، واشتمل القرار على ثلاث عشرة مادة، جاء في مادته الأولى: ((تلتزم الوزارات وما يتبعها من دوائر الدولة الرسمية وشبه الرسمية والمؤسسات والمصالح والشركات العامة وكذلك الجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية واعتمادها في وثائقها ومعاملاتها...)) وفي مادته الثانية ألزم المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة باعتماد اللغة العربية الفصيحة لغةً للتعليم وعليها أن تحرص على سلامتها لفظًا وكتابة... وجاء في مادته الثالثة:((تلتزم مؤسسات النشر...أن تعنى بسلامة اللغة العربية ألفاظًا وتراكيب نطقًا وكتابة...على أن لا يجوز استعمال العامية إلا عند الضرورة القصوى مع السعي إلى تقريبها من اللغة الفصيحة والارتفاع بها وفق خطة منظمة ومقصودة))، وأكدت المادة الرابعة على ((أن يحرر باللغة العربية الوثائق والمذكرات والمكاتبات... والسجلات والمحاضر... والعقود والإيصالات... واللافتات...))، وأوجبت المادتان الخامسة والسادسة أن تكتب باللغة العربية العلامات والبيانات التجارية... والأسماء والإمضاءات والكلمات والحروف والأرقام...والبيانات التجارية للسلع المنتجة في القطر العراقي، كما تلصق بطاقة باللغة العربية على البضائع المستوردة، وأوجبت المادة السابعة اعتماد العربية في التعبير في جميع ما سبق ذكره، وتجنب استعمال المصطلحات الأجنبية إلا عند الضرورة، وبصورة مؤقتة عند عدم توافر المصطلحات العربية.وألزمت المادة الثامنة الوزارات أن تنشئ أجهزة تعنى بسلامة اللغة العربية في وثائقها ومعاملاتها،ومن أجل أن يكفل المشرع

حسن تطبيق هذا القانون أكد في مادته التاسعة أن يكون المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد في وضع المصطلحات العلمية والفنية وعلى الأجهزة المعنية الرجوع إليه بشأنها.ولكي يُعطى القانون صفة الإلزام أكد في مادته الحادية عشرة أن يعاقب المخالف لأحكام هذا القانون بالعقوبات الانضباطية.

وشهد الواقع اللغوي في العراق إجراءات عملية كبيرة على إثر إصدار هذا القانون، كانت جميعها تهدف إلى سلامة اللغة العربية، بعد أن التزمت دوائر الدولة ومؤسساتها بتطبيق كل ما أنيط بها من أمور،فضلا عن إجراءات أخر جاءت تعزيزا لتطبيق هذا القانون. (٤٦)ولولا أن العراق كان يمر بظروف استثنائية لجنينا خيرا كثيرا من جراء تطبيقه، باتجاه تفصيح العامية من جهة والمضي في غلبة الفصيحة من جهة أخرى وصولا إلى تقليل آثار الازدواجية. (٤٧)

رابعا: وفي الختام وفي ضوء ما تقدم يوصي هذا البحث بأن تعمل مجامع اللغة العربية وبالتنسيق مع وزارات التربية والتعليم العالي في الأقطار العربية كافة على أن تصدر حكوماتها قوانين للحفاظ على سلامة اللغة العربية في أقطارها على غرار ما حصل في العراق،و أن تستشار مجامع اللغة العربية في ذلك وتكون المرجع الأول في المساعدة على استصدار مثل هذه القوانين وتنفيذها؛ وإذا ما تحقق ذلك فإنه سيفضي - حتمًا- إلى تخفيف وطأة الازدواجية من خلال تضييق الفجوة بين اللغة المكتوبة واللهجات المحكيات مما يعني أننا سنكون قد خطونا خطواتٍ مهمةً على طريق وحدة اللغة.

الهوامش

(١) وبهذا الصدد قال أبو بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي، (ت٣٧٩هـ) في كتابه: لحن العوام: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢،دار المعارف،مصر القاهرة،١٩٨٤،ص٤: ((ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر من إسلامها تبرع في نطقها بالسجية وتتكلم على السليقة.))، وللمزيد حول هذه المسألة ينظر: "أصالة اللغة العربية وعلومها": الدكتور إبراهيم عبد الله رفيدة، مجلة الفكر العربي،العدد٢٦،السنة الرابعة،آذار،١٩٨٢، ص٦،و نظرية صحة الألفاظ عند الجوهري:عامر باهر الحيالي رسالة ماجستير،جامعة الموصل،كلية الآداب،قسم اللغة العربية،بإشراف أ.د.عبد الوهاب محمد علي العدواني،١٤١٠هـ /١٩٨٩م، ص ١٧.

(٢) إن مصطلح (لغة) ورد في تراثنا اللغوي ليدل على ما يسمى بـ (اللهجة) في مصطلحنا المعاصر.

(٣) ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي، (٩١١هـ)،شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاري، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة(د.ت)،ج١،ص٢١١-٢١٢،و الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: أبو الحسين أحمد بن فارس، (ت ٣٩٥هـ)تحقيق:مصطفى الشويمي،مؤسسة أ.بدران للطباعة والنشر،بيروت ١٣٨٣هـ /١٩٦٤م:ص٢٨،وفقه اللغة، الدكتور علي عبد الواحد وافي، ط٤،القاهرة،١٢٧٥هـ /١٩٥٦م: ص١١٢، ودراسات في فقه اللغة: الدكتور صبحي الصالح، ط٤،دار العلم للملايين،بيروت،١٣٧٠هـ /١٩٧٠م،ص١٠٩، و"أفصحية لغة قريش بين النفي والإثبات":عبد الجبار علوان النايلة،آداب الرافدين،العدد الثامن،كلية الآداب،جامعة الموصل،١٣٩٧هـ /١٩٧٧م.

(٤) ينظر:الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب:الدكتور تمام حسان، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،١٤٠٩هـ /١٩٨٨م،ص٧٤ وما بعدها.

(٥) ولم يسلم من اللحن علماء العرب الذين ينتمون إلى أصول حضرية، حتى بعد وضع القواعد، وقد روى الزُّبيدي في كتابه:طبقات النحويين واللغويين،ص ١٣١ قصة الفراء(ت٢٠٧هـ) مع الرشيد المعروفة،حين لحن في حضرته فقال له: ((أتلحن ؟ قال يا أمير المؤمنين، إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت، فاستحسن الرشيد قوله)).

(٦) ينظر: نظرات في اللغة والنحو: طه الراوي،المكتبة الأهلية،بيروت،د.ت،،ص٨٢ - ٨٣، و أصالة اللغة العربية وعلومها،ص٦.

(٧)نظرات في اللغة والنحو: ص ٨٣، وثمة أقوال وروايات كلها تؤكد أن العربي المحض كان يستهجن اللحن ويستقبحه للاطلاع عليها ينظر:طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي (ت٣٧٩هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،ط٢، دار المعارف،مصر،١٩٨٤م.،ص١٣

،والخصائص.: أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) ،تحقيق:محمد علي النجار،دار الكتاب العربي،بيروت ـ لبنان،د.ت،ج٢ / ٨، ونظرات في اللغة والنحو، ص ٨٣،و من تاريخ النحو: سعيد الأفغاني دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت ـ لبنان،د.ت،ص٧ وما بعدها.

(٨) ينظر: نظرات في اللغة والنحو،ص٨٣.

(٩) العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك، ترجمه وعلق عليه:د.رمضان عبد التواب،مكتبة الخانجي،مصر ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م،ص١٧٤.

(١٠) ينظر: نظرات في اللغة والنحو،ص٨٤.

(١١) ويعد الأمام الكسائي(١٨٩هـ)"رحمه الله" رائد حركة "تنقية اللغة" في تاريخ العربية،في كتابه (ما تلحن فيه العامة)،وقد بلغ عدد كتب لحن العامة والخاصة في الثبت الذي أعده الدكتور رمضان عبد التواب، منذ بداية التأليف في لحن العامة في نهاية القرن الثاني، حتى نهاية القرن الرابع اثنين وعشرين كتابا من مجموع اثنين وخمسين كتابا ضمها الثبت المذكور يوم نشره معده في كتابه: (لحن العامة والتطور اللغوي) عام ١٩٦٧: ١٠١-١٩٨.

(١٢) ينظر: النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة: عامر باهر الحيالي أطروحة دكتوراه،جامعة الموصل،كلية الآداب،قسم اللغة العربية،بإشراف أ.د.عبد الوهاب محمد علي العدواني١٤١٧هـ =١٩٩٦، ص٥ـ٧.

(١٣) فقه اللغة: وافي،ص١٥٤.

(١٤)وكان رائدها هذه المرة السيد شهاب الدين أبا الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) ،في كتابه الموسوم " كشف الطرة عن الغرة "وهو ترتيب جديد على حروف المعجم لشرح درة الغواص في أوهام الخواص لشهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) ينظر: حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث: الدكتور محمد ضاري حمادي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨١م، ص٢٥.

(١٥) نذكر منها ما يأتي: لحن العامة والتطور اللغوي " : الدكتور رمضان عبد التواب، ولحن العامة في ضوء علم اللغة الحديث: الدكتور عبد العزيز مطر،ط ٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م،و حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث: الدكتور محمد ضاري حمادي،والدراسات اللغوية في العراق في النصف الأول من القرن العشرين: الدكتور عبد الجبار جعفر القزاز، دار الرشيد للنشر،بغداد،١٩٨١،وحركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن(١٩٧٨ ـ٢٠٠٣م): ناظم محمد الطائي،رسالة ماجستير،جامعة الموصل،كلية الآداب، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،وغيرها.

(١٦) وأوضح جلال الدين السيوطي في كتابه:المزهر،ج١،ص ٢٢٠ أنه إذا ما انحط الكلام عن درجة الفصيح قيل عنه (ضعيف)أو(ليس بالفصيح) أو (ليس بالعالي) أو (ليس بالقوي)أو (ليس بالمأخوذ به) ، وينظر::النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة،ص٦٣ ـ ٦٤.

(١٧) ينظر: إشكاليةُ مُصْطَلَحَي اللغة الفَصيحَةِ واللغة الفُصْحى في تراثِنا اللُّغويِّ:نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي،الجزء الرابع ـ المجلد السابع والخمسون بغداد ١٤٣١هـ = ٢٠١٠ م.

(١٨) ومن الدعاة إلى العامية في الوطن العربي: سلامة موسى وأحمد تيمور ومحمد تيمور ومحمود تيمور ولويس عوض من مصر واسكندر معلوف الذي جاء مصر من سورية وسعيد عقل ومارون غصن وأنيس فريحة من لبنان وغيرهم./ ينظر:،في علم اللغة العام: الدكتور عبد الصبور شاهين،ط٣،مؤسسة الرسالة،١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م،بيروت،٢٨٠ ـ٢٨٣.

(١٩) للمزيد حول هذه المسألة،ينظر: نظرات في اللغة النحو،ص٨١ ـ ٨٩،ودراسات في فقه اللغة، ص٣٥٨ ـ ٣٦١،و اللغة والنحو بين القديم والحديث: عباس حسن ،دار المعارف،مصر،١٩٦٦م، ص٢٥٢ وما بعدها،وفي علم اللغة العام،،ص٢٦٩ وما بعدها.ومما قاله مؤلفه الدكتور عبد الصبور شاهين في هذا الصدد: ((إن جميع المستشرقين الذين دعوا إلى نبذ الفصحى واتخاذ العامية لغة ثقافة هم من غير المتخصصين في الدراسات اللغوية...وقد أدى عدم معرفة دعاة العامية بالدرس اللغوي إلى أن وقعوا في أخطاء ساذجة تدل على الجهل المتلفع بالحقد والضغينة والخداع.)) ،وينظر: قضايا ومشكلات لغوية: أحمد عبد الغفور عطار ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م، ط١،الناشر تهامة،جدة،المملكة العربية السعودية،ص٤١ ـ ١٠٣،وفقه اللغة العربية،ص٣٥٥ ـ٣٩٦،وغيرها.

(٢٠) ينظر: نظرات في اللغة النحو،ص٣٦١،وقضايا ومشكلات لغوية: ٥٦ـ٦٢،٥٨ـ٩٧،٦٤ـ١٠٢، وفقه اللغة العربية:٣٥٩.

(٢١) ومن ذرائعهم بهذا الصدد:أ. صعوبة الفصحى.ب. الفصحى قاصرة ولا تصلح أن تكون لغة للحياة.ج. الفصحى سبب تخلف الأمة.

(٢٢) وفي هذا الصدد قال يوهان فك، في كتابه:العربية، ص٢٤٢: ((ولقد برهن جبروت التراث العربي التالد الخالد، على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر. وإذا صدقت البوادر، ولم تخطئ الدلائل، فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية، ما بقيت هناك مدنية إسلامية)).

(٢٣) م.ن:٣٦٥.

(٢٤) تارة تطرح المشكلة من خلال مناقشة مشكلة الازدواجية اللغوية، وتارة أخرى من خلال مناقشة مشكلة العامية، وتارة ثالثة تناقش المشكلة تحت عنوان التصحيح اللغوي أو لحن العامة، وكان تناول المشكلة على وفق العنوانين الثاني والثالث هو الغالب.

(٢٥) ومن أهم ما اطلعت عليه من الندوات التي ناقشت مشكلة الازدواجية اللغوية هي " ندوة الازدواجية في اللغة العربية" التي أقامها مجمع اللغة العربية الأردني وقسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الأردنية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، وقد نشرت وقائع الندوة وتوصياتها والبحوث التي ألقيت فيها عام ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨م.

(٢٦) وقد قدم مقترحات لحل مشكلة الازدواجية الأستاذ طه الراوي، في كتابه: نظرات في اللغة والنحو، ص٦٢، ومن المقترحات التي قدمها بهذا الصدد:اصطناع لغة وسطى تكون أداة للتفاهم بين أهل المعرفة من أبناء العروبة في مشارق الأرض ومغاربها،وينتفع منها في حلقات الدرس وفي مجالس المتعلمين الخاصة،والدكتور كاصد ياسر الزيدي في كتابه: فقه اللغة العربية،ص ٣٧٥ ، ومن المقترحات التي قدمها:التبكير في تعلم الفصحى الميسرة وهي السهلة الخالية من الألفاظ الغريبة على الشداة الناشئين سيترك آثاره النافعة في أساليبهم حين يكبرون.

(٢٧) ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن هناك دعوات قديمة توازي دعوتنا هذه يرى أصحابها أن نسمو بلغة الحديث إلى مستوى اللغة المكتوبة،وتهذيب اللهجات العامية حتى تقرب من الفصيحة،وبذلك تتوحد لغة الكتابة مع لغة الحديث. واختلف الباحثون في الاسم الذي أطلقوه على هذا الخليط اللغوي،فالأستاذ الراوي سماه "اللغة الوسطى" في كتابه:نظرات في اللغة والنحو،ص٦٠ ـ٦١،والدكتور صبحي الصالح سماه "الفصحى الميسرة" في كتابه:دراسات في فقه اللغة، ص٣٦٠،

(٢٨) وقد تهيأ لي أن أدرس كلام العامة في معجم (جمهرة اللغة) لابن دريد (ت ٣٢١هـ)،وأن أقترح على أحد طلبتي في الماجستير موضوع(معجم التطور الدلالي في كتاب جمهرة اللغة لابن دريد الجذور الثلاثية نموذجا)، ولفتني في البحث والرسالة محاولة ابن دريد تأصيل كلام العامة برده إلى أصوله التي انحدر منها ؛ فرد ألفاظا منه إلى أصول عربية صحيحة، كما أنه لم يتردد في التصريح بفصاحة كلام العامة ؛لأنه لا يرى فيه خروجاً عن سننِ العرب في كلامها، سوى أنه ابْتُذِلَ بكثرةِ اسْتِعْمالِ العامَّةِ لَهُ /ينظر:بحثي: "كلام العامة في المعجمات العربية جمهرة اللغة نموذجا"، مجلة المجمع العلمي،ج٣،مج ٥٥، بغداد ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م. الجزء الأول من البحث،ص٣٧ ـ٤٦،و معجم التطور الدلالي في كتاب جمهرة اللغة لابن دريد الجذور الثلاثية نموذجا: بشار ممتاز النعيمي، رسالة ماجستير،جامعة الموصل/كلية التربية الأساسية،بإشراف أ.د. عامر باهر الحيالي،٢٠١٤م.

(٢٩) المعجم المجهول والفصاح المظلومات: مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ٧٧ – السنة ١٩ – تشرين الأول "اكتوبر" ١٩٩٩ – جمادى الأخرى – رجب ١٤٢٠.

(٣٠) فها هو الصقلي قد جوَّزَ ما أُنْكِرَ على العامة من الألفاظ،ولهذا قال في مقدمته ص٤٥:"ونبهتُ على جوازِ ما أَنكرَ قومٌ جوازَهُ،وإنْ كانَ غيرُه أفصحَ منهُ،لأنَّ إنْكارَ الجَائز غلطٌ. والتزم في متن كتابه بما نبَّهَ عليه في مقدمته حين خصص باباً سماهُ "باب ما العامَّةُ فيه على الصوابِ والخاصةُ على الخطأ"/: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان: ابن مكي الصقلي (٥٠١هـ)، تحقيق: د. عبد العزيز مطر، القاهرة ١٩٦٦م،ص٢٤٢.٢٤٧/ وها هو البطليوسي يرد تخطئة ابن قتيبة (٢٧٦هـ) للعامَّة في كتابه(أدب الكاتب)،وعبر عن ردِّه بأكثر من حكم منها قوله:((فلا وجهَ لإدخالها في لحن العامة))، وقوله:((إدخالُ مثلِ هذا في لَحْنِ العامَّةِ تَعَسُّفٌ))، وقوله: (ولكنَّ قولَ العامَّةِ لا يُعَدُّ خَطَأً)، ويعزو ابن السيد هذه الردود إلى أنَّ ما عده ابن قتيبة خطأً، إمَّا أنْ يكونَ لغةً وما ذكره ابنُ قتيبة أفصحُ منها، أو أنَّهُ عربيٌّ صحيحٌ لا وجهَ لتخطئته. / الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: ابن السيد البطليوسي (٥٢١هـ): تحقيق: مصطفى السقا، ود. حامد عبد المجيد، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٠م:٢/ الصفحات ١٨٣، ١٨٤، ٥ ـ٦ على التتالي.

(٣١) في كتابه (قاموس رد العامي إلى الفصيح)،ط٢،دار الرائد العربي،بيروت/لبنان،١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٠)، الذي يفصح عنوانه عن مضمونه،

فقد جمع فيه مؤلفه أكثر من ألفٍ وأربعمائة مادة من لهجة جبل عاملة وساحل دمشق وما يليه من سفوح لبنان ، وردَّها جميعها إلى أصول عربية فصيحة.وقد وضح كيف اهتدى إلى هذا العدد الكبير من الألفاظ العامية التي تعود أصولها إلى الكلام العربي الفصيح في التمهيد الذي خصصه لهذا الغرض.

(٣٢) في كتابه(اللهجة الموصلية دراسة وصفية ومعجم ما فيها من الكلمات الفصيحة) ،مطابع دار الكتب للطباعة والنشر،جامعة الموصل، ١٩٨٨م، ص٥) الذي جمع فيه(١١٨٧) ألفا ومائة وسبعا وثمانين مادة من عامية الموصل أثبت أن أصولها تعود إلى اللغة العربية الفصيحة،وذلك بتأصيلها من كتب اللغة والمعجمات.

(٣٣) في كتابه: (معجم فصاح العامية موثق من مصادر التراث والمراجع الحديثة) ،مكتبة لبنان ناشرون،بيروت ـ لبنان،ط١٩٩٧،١م.

(٣٤) وقد اختار ابن الحنبلي عنوانا لكتابه يفصح عن صواب كلام العوام إذ سماه (بحر العوَام فيما أصاب فيه العَوام) رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف ابن الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١هـ/ ١٧٨٥م دراسة وتحقيق د. شعبان صلاح/دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ٢٠٠٦.

(٣٥) ينظر: الاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مائتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس: الدكتور محمد حسن جبل، مطابع الدجوي القاهرة ١٩٨٦م،ص٥١ ـ٥٢.

(٣٦) الرَّسُّ لغة: ((ابتداءُ الشَّيْءِ،، ومنه رَسُّ الحمى ورَسيسُها)) القاموس المحيط: الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، ط ٢ مطبعة مصطفى البابي الحلبي،القاهرة م١٩٥٢: ٢ /٢٢٧.والترسيس في الاصطلاح علم جديد وهو علم عربي محض ابتكره الأستاذ عبد الحق فاضل الذي عرفه بقوله: (والذي نعنيه بالتَّرسيس إرجاع اللفظة العربية أو الأعجمية إلى رَسها، أي بدايتها... وهو يعني إعادة اللفظة إلى جدتها الأولى (حواء) في صورتها التي نطق بها أول إنسان،مع تعقيب المراحل التطورية التي قطعتها تلك اللفظة حتى وصلت إلى الصورة التي نعرفها بها في إحدى اللغات.. مغامرات لغوية: ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، وينظر: تاريخهم من لغتهم: عبد الحق فاضل،دار الحرية للطباعة،بغداد١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م: ص ١٣٣ ،وبحثنا: قراءةٌ في التَّفْكيرِ اللُّغَويّ عند عبد الحق فاضل علم التَّرسيس نموذجًا. مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية،عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمي السنوي الرابع الدولي الأول لكلية التربية الأساسية جامعة الموصل الذي عقد بعنوان (جهود الموصل اللغوية والأدبية عبر العصور) في ٣٠ـ٣١ آذار ٢٠١١.

(٣٧) كما هو حال قسم من الكلمات التركية والكردية والفارسية التي تستعمل في اللهجة الموصلية./ينظر:اللهجة الموصلية دراسة وصفية ومعجم ما فيها من الكلمات الفصيحة، ص٧ وما بعدها.

(٣٨) ينظر:اللهجة الموصلية،ص٧، والمعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم:أبو منصور الجواليقي (٥٤٠هـ):. تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط ٢، مطبعة دار الكتب، القاهرة،١٩٦٩م،:ص ٥٩ ـ ٦٠، إذ ذكر في مقدمته الطرائق التي يميز بها اللفظ العربي من غيره.

(٣٩) لعل أول من فضل استعمال مصطلح (التأثيل) بدلا من التأصيل من الدارسين العرب هو الأستاذ عبد الحق فاضل لذلك قال: ونرى أن نستعمل كلمة (التَّأثيل) مقابلَ كلمة (Etymology) التي ترجمها المعاصرون من اللغويين بـ(علم أصول الألفاظ) ؛لأن لكلمة (الأَصْل) ومشتقاتِها معانيَ عامةً نستعملها في مختلف الأغراض من حياتنا اليومية،فلا نريد أن نحملها الآن معنى آخر له صبغته العلمية التخصصية، في حين أن لغتنا قد كنزت لنا ذخيرة طالما تحدثنا عن غزارتها...ومنها هذه الكلمة التي نقترحها(التأثيل)...)) / مغامرات لغوية ملكة اللغات: عبد الحق فاضل دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٠م ص٢٠٤، وينظر بحثنا:قراءة في التفكير اللغوي عند عبد الحق فاضل علم الترسيس نموذجا: وقد آثرت استعمال هذا المصطلح في أثناء البحث عن أثول الكلمات الدخيلة في لهجاتنا المحكية في بحثي المتواضع هذا.

(٤٠) ومن الباحثين الذين لهم باع طويل في هذا النمط من البحث اللغوي التاريخي طه باقر، في كتابه: من تراثنا اللغوي القديم ما يسمى في العربية بالدخيل،مطبعة المجمع العلمي العراقي،بغداد،١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، و الأستاذ عبد الحق فاضل في كتابه "مغامرات لغوية، و الأستاذ ربيع مكي، في بحثه: "طرق أئمة اللغة القدامى لمعرفة المعرب وما بني عليها في العصر الحديث" ، مجلة الفكر العربي، العدد ٧٥، السنة ١٥،٩٩٤،وغيرهم ممن لم يتسع المقام لذكرهم

(٤١) من الطبيعي أن يكون قد سبقنا باحثون إلى تقديم مثل هذا المقترح،لأنه من تحصيل الحاصل أن يقترحه كل من يدرس مشكلة الازدواجية اللغوية؛

لذلك اقتضى التنويه بهذه المسألة تحقيقا للأمانة العلمية.

(٤٢) ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن إحدى الصحف العراقية نشرت في سبعينات القرن الماضي خبرا مفاده أن أحد مدرسي اللغة العربية في إحدى المحافظات العراقية فرض غرامة مقدارها عشرة فلوس يدفعها الطالب الذي يلحن في درس اللغة العربية.

(٤٣) وفي هذا الصدد يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه:دراسات في فقه اللغة،ص٣٦: ((وليس لداء العامية من علاج إلا محاربة الأمية، وتعميم التعليم الإجباري...))

(٤٤) هكذا ورد الإعلان (العربية الفصحى)،فلا أدري أيقصدون الفصحى بمفهومها الذي وضحناه أم يقصدون الفصيحة،فالتبس عليهم المفهوم.

(٤٥) نشر هذا القانون في الجريدة الرسمية (الوقائع العراقية)، العدد ٢٥٨٧، السنة التاسعة عشرة،١٩٧٧: ص ٧١٤ ـ ٧١٥.

(٤٦) أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- في عام ١٩٨٣م صدر قانون (الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) للإشراف على تنفيذ هذا القانون ومتابعة ما يتصل به من قضايا مهمة.
- في عام ١٩٨٨م أصدرت (الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) العدد الأول من مجلة "الضاد" التي تهدف إلى العناية باللغة العربية ومنها تحقيق أهداف هذه الهيئة وما سعى إليه "قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية." / ينظر:: "من كلمة رئيس التحرير" مجلة الضاد الدكتور أحمد مطلوب،،الجزء الأول:٦ ـ ٧.
- فرض تدريس اللغة العربية في الجامعات العراقية كافة وفي كل التخصصات، ولا يقبل الطلبة المتقدمون للحصول على شهادة الماجستير في كليات القانون والعلوم السياسية إلا بعد اجتيازهم امتحان كفاءة في اللغة العربية.
- شكلت لجان في الجامعات العراقية للحفاظ على سلامة اللغة، وكان الباحث عضوا في اللجنة التي شكلت في جامعة الموصل.
- منع استعمال اللهجة العامية في وسائل الإعلام العراقية.
- فرضت رقابة على اللافتات التجارية وفرضت اللغة العربية الفصيحة لغة لكتابة هذه اللافتات.
- نشطت حركة التصحيح اللغوي،وكثرت الجهود المبذولة في هذا الميدان، إذ اختار الدكتور محمد ضاري حمادي عنوان "حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث ١٨٥٠ ـ١٩٧٨ " موضوعا لأطروحته في الدكتوراه، كما أني اقترحت عام ٢٠٠٣م على أحد طلبتي في الماجستير دراسة حركة التصحيح اللغوي للمدة التي أعقبت صدور قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية،ومن حيث انتهت دراسة الدكتور محمد ضاري، أي ابتداء من عام ١٩٧٨م، وانتهاء بعام ٢٠٠٣م./ ينظر:حركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن ١٩٧٨ ـ٢٠٠٣م، ناظم محمد الطائي،رسالة ماجستير،جامعة الموصل،كلية الآداب ٢٠٠٣م.

(٤٧) لابد من التنويه هاهنا بجهود مجمع اللغة العربية الأردني الذي قدم مشروع قانون اللغة العربية الذي رفعه وزير التربية والتعليم بتاريخ ١٩٨١/٥/٢٦ إلى رئيس الوزراء، لكنه لم يعرض على المجلس الوطني الاستشاري آنذاك لمناقشته والتصويت عليه، وعلى الرغم من أن الباحث لم يطلع على النص الكامل للمشروع الذي يضم اثنتي عشرة مادة، فإن ما اطلع عليه من مواد وهي ثماني يؤكد تشابه مضامين مواد هذا القانون مع قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية تشابها كبيرا، نأمل أن يرى هذا القانون وأمثاله النور إن شاء الله./ ينظر: اللافتات في الأردن: دراسة لغوية اجتماعية لبعض جوانب غربتنا الحضارية، الدكتور محمد راجي الزغلول، وهو أحد أبحاث "ندوة الازدواجية في اللغة العربية" بعمان.